

semiotic reading of the play "The Secret of the Suicide" by Tawfiq Al-Hakim

Dr. maria tounsi ¹

¹: Higher Normal School of Mostaganem, Algeria, mariatounsi88@hotmail.com

Received:21 /10/2024, Published: 24/12/2024

Abstract:

Each approach has its own foundations and principles that distinguish it from others, and the principles of the semiotic approach give it preference and advancement over the rest of the approaches, as it is the only one that makes the field of interpretation wide and open to the reader, and grants him unparalleled independence in analysis.

Because Tawfiq al-Hakim's creations also have something that distinguishes them, we decided to combine these two distinctions in one study, by reading one of Tawfiq al-Hakim's masterpieces (the play The Secret of the Suicide) as a semiotic reading.

Keywords: Tawfiq al-Hakim; semiotics; title; cover; characters.

قراءة سيميائية في مسرحية "سر المنتحرة" لتوفيق الحكيم

د. مرية تونسي ¹

¹: المدرسة العليا للأساتذة بمستغانم، الجزائر، mariatounsi88@hotmail.com

ملخص:

لكلّ منهج أسس ومبادئ خاصة تميّزه عن غيره، ومبادئ المنهج السيميائي منحه الأفضلية والتقدّم على باقي المناهج، فهو الوحيد الذي يجعل مجال التأويل متسعاً ومفتوحاً أمام القارئ، ويمنحه استقلاليةً في التحليل منقطعة النظير. ولأنّ إبداعات توفيق الحكيم هي الأخرى لها ما يميزها، ويجعلها تتربع على عرش الإنتاجات الأدبية، فقد ارتأينا الجمع بين هذين المتميزين (المنهج السيميائي وكتابات توفيق الحكيم) في دراسة واحدة، وذلك بقراءة إحدى روائع الحكيم (مسرحية سر المنتحرة) قراءة سيميائية.

كلمات مفتاحية:

توفيق الحكيم، سيميائية، العنوان، الغلاف، الزمان والمكان، الشخصيات.

مقدمة:

يعتبر المنهج السيميائي من أشهر المناهج النقدية الحديثة، وهو من المناهج القليلة التي تفتح الأفاق أمام المتلقي، وتترك له حرية التأويل والتحليل، وفقاً لمرجعياته الفكرية والاجتماعية. ولأنّ مسرحيات توفيق الحكيم هي من الإبداعات النادرة التي كثيراً ما تثير شجوننا فقد ارتأينا أن نختارها كحقل لتطبيق الرؤى السيميائية الحديثة وفق منظورنا الخاص. محاولين في ذلك الإجابة عن الإشكال الآتي: ما هي الخطوات المتبعة لإجراء قراءة سيميائية في مسرحية سر المنتحرة؟ وهدفنا من الدراسة هو تسليط النور على هذه القطعة الفنيّة، لأننا نرى أنّها ذات قيمة موضوعية وشكلية، إلّا أنّها لم تنل ما تستحق من دراسات وبقية مغمورة، إن جاز التعبير وصح في ذلك.

السيميائية في معناها العام هي نظرية العلامات، ومن ثمّ فإنّها تشمل وصف كل التجارب الذهنية والدلائل الطبيعية، ويرى بعض الدارسين أنّه يتعيّن عليها أن تقف عند أنساق التواصل غير اللغوي¹. تُعنى السيميائية بدراسة العلامات وعلائقها وتنوعها ووظائفها، وعلى هذا فهي تهتمّ بكلّ الإشارات الدالة مهما كان نوعها².

-تقديم المسرحية:

كُتبت مسرحية "سر المنتحرة" بأنامل توفيق الحكيم سنة 1929م، تتكون من أربعة فصول، وهي جزء من مؤلف يحمل عنوانها؛ به خمس مسرحيات وهي: سر المنتحرة، نحو حياة أفضل، بين الحرب والسلام، نهر الجنون والشيطان في خطر.

-ملخص المسرحية:

تُعد هذه المسرحية من أروع ما خطت أقلام الحكيم في مسرحه الذهني، وتدور أحداثها حول فتاة شابة تدعى "عزيزة" تسام طيبيا خمسينيا يدعى "محمود عزمي" وتعترف له بحبها، في حين ينكر هو ذلك ويعتبره طيش مراهقة، إلا أنّ الأمر يخرج عن السيطرة، ويصبح لقصتهما صدى يمتد إلى خارج العيادة، فتعلم زوجة محمود وأم ابنه السيدة "إقبال" بالأمر، فتضيق عليه الخناق وتكثر عليه الزيارات كي تتمكن من الإمساك به متلبساً على حين غرة. وفي آخر زيارة لها تطلب إقبال من محمود عهدا مكتوبا بالوفاء وعدم التفكير بالزواج ثانية مطلقا، وإن تحتم الأمر فيجب عليه دفع غرامة رهيبه. يمضي محمود هذا العهد بكل عفوية لأنه يرى نفسه مثال الشخص الواعي، المتزن، المكتفي بزوجته، الساعي إلى نشر علمه وخدمة مرضاه.

وبعد مغادرة إقبال مكتب زوجها مباشرة تلجج عزيزة لتلعب آخر أوراقها، وتجرب آخر حظوظها في الفوز بقلب الطبيب المعشوق، ولما تياس من ذلك ترمي بنفسها من نافذة المكتب بالطابق الخامس لتسقط جثة هامدة، وينصدم محمود من هول ما وقع. هنا ينزل الستار معلنا نهاية الفصل الأول.

-الفصل الثاني: يبدأ هذا الفصل بمباشرة التحقيقات، واجتماع الشرطة في مكتب الطبيب مع محاولة إقبال الدخول للمكتب ومنعها من طرف أحد أعوان الشرطة. تتسارع الأحداث ليدخل بعدها محمود عزمي في دوامة الندم بسبب عدم تصديقه لعزیزة وقت اعترفت بحبها، وتنقلب حياته رأسا على عقب ويعلن تغيير سبل معاملته لزوجته فيشرع في إهانتها وطردها، وتتفاجأ هي بما يحدث قائلة: "كان مكتوبا علي ولا ريب أن أشاهد هذه المآسي المضحكة..."³. وينتهي هذا الفصل بقول عزمي: "سأعيش بذكرى هذه الفتاة"⁴.

-الفصل الثالث: يُستهل هذا الفصل بشكوى إقبال تصرفات زوجها لأم عزيزة، فقد بات عزمي شخصا آخر، بدأ في التصابي، وقام بتشغيل عديد الحلاقين لقص وصبغ شعره وكذا عاملات الزينة لخدمة أظافره وبشرته...وأهمل زوجته وابنه وعمله وأبحاثه. تسعى الأم لمواساة الزوجة في مصابها وتحاول عبثا تغيير حالتها، وتنتقد هندامها وتخبرها أنّها أضحت مهملة لنفسها، بينما هي في أكثر الفترات حاجة لأناقتها وحضورها، والزوجة في حالة عجز تام، كيف لا؟ وزوجها بات يراها ملجأ همومه وكر ذكرياته السيئة، وهو الذي يرى نفسه اليوم شابا تهافت النساء والفتيات للقاءه.

قبل مغادرة الأم المنزل تذكر اسم سائق ابنتها "محمود" الذي هرب لأجل امرأة أخرى، وتركها في حالة انهيار تام أياما قبل انتحارها، ولشدة دهاء إقبال فإنها تربط الحلقات المبعثرة مباشرة لتتوصل إلى أنّ عزيزة إنما انتحرت لأجل سائقها، وأوهمت الطبيب والجميع أنّها انتحرت لفشلها في إغواء محمود عزمي. تشفق إقبال على زوجها وتحاول التجلّد والاحتفاظ بالسّر حتى لا توقظه من كابوسه السعيد، إلا أنّ تصرفاته ووصفه لها بـ"الحيزون" يجبرها على الاعتراف وقول كل شيء دفعة واحدة. ترفض الأنا العليا لعزمي تصديق ما سمعت أذناه، فيصرخ: "مزورة، ملفقة...ساقطة". وهنا ينزل ستار انتهاء الفصل الثالث.

-الفصل الرابع: يبدأ بتصوير عيادة عزمي كما ظهرت في الفصل الأول، لتدخل سيّدة أنيقة تقوم برشوة الحارس "سالم" حتى يسمح لها بانتظار الطبيب في مكتبه، لتدخل بعدها إقبال في كامل زينتها وأناقته، كما ظهرت في الفصل الأول، وكأنّ الحكيم يؤدّ التذكير بأن كل شيء يعود إلى وضعية الانطلاق. تسخر إقبال من زوجها وتصفه بالشيخ المبجل، ويظهر هو في صورة المنتكس الحزين، المهمل لشعره وهندامه، كما كان دائما، وكما يليق به وبأمثاله. وبعد مغادرة إقبال مكتب زوجها بعدما أسمعته كل ما ضاق به صدرها من كلام، تحضر سيّدة أخرى وفور رؤيتها لعزمي تتفاجأ بأنه مسنّ ومن غير المعقول أن تنتحر لأجله صبية، وتهينه بكلام مبطن، لا يظهر إن كانت تقصده أو لا، وتخرج مسرعة. ليدخل سالم في آخر مشهد ويمدح

الطبيب لطرده الزائرة الثقيلة، إلا أنّ عزمي يعترف أنّها غادرت من تلقاء نفسها، ويأمر سالم بالعودة لعمله ويقوم هو لعمله الأصلي، راميا قبل ذلك بصورة عزيزة من النافذة التي انتحرت منها.

- سيميائية العنوان:

لم يكن الأدباء القدامى يولون أهمية كبيرة للعناوين، إلا أنّ نزول القرآن غير الكثير من المفاهيم السائدة، يقول الجاحظ في هذا الصدد: "سَمَى الله كتابه اسما مخالفا لما سَمَى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل، سمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا، وبعض سوره كقصيدة، وبعض آيه كبيت وأخرها فاصلة كقافية"⁵.

شغلت عناوين النصوص الأدبية في الدراسات الحديثة حيزا كبيرا من اهتمام النقاد، رأوا فيه عتبة مهمة ليس من السهل تجاهلها، إذ يستطيع القارئ من خلالها دخول عالم النص دون تردد⁶.

إنّ دراسة العنوان وما يحمله من مدلولات وعلاقات توليدية بين الداخل والخارج في أشكال مهمة وواضحة، خفية وجليّة، دراسة بالغة الأهمية في الكشف عن الأبعاد السيميائية والدلالية للعنوان في النص، والنص في العنوان التي تنتج لكل من السيميائية والتأويلية ممارسة سلطتها على النص في ظل موت المؤلف، فالعنوان والمتن يخضعان لسلطتي التأويل والسيميائية القرائيتين⁷.

تنبثق أهمية العنوان ليس بوصفه إعلاما عن محتوى الكتاب وإخبار له فحسب بقدر ما أنّ فعل القراءة يتوقف عليه، فالكتاب يحقق كينونة بفعل القراءة وعدم القراءة يدفع الكتاب أو النص إلى حافة المجهول⁸.

ينهض العنوان بمجموعة لا بأس بها من الوظائف التي يحسم قسم منها قوة النص لأنّ له وظيفة في تشكيل اللّغة الشعرية ليس بوصفه مكملًا أو دالا على النص ولكن من حيث هو علامة لها بالنص علاقات اتصال وانفصال⁹.

يقال: "العنوان الجيد هو أحسن سمسار للكتاب" وفعلا كان عنوان المسرحية التي بين أيدينا "سر المنتحرة" جيّدا من كل النواحي؛ الجمالية والوظيفية والإغرائية وغيرها. جاء العنوان جملة اسمية بسيطة متكونة من مبتدأ ومضاف إليه وخبر محذوف تقديره "الدفين" أو "الحقي"، فعادة السرّ أن يكون خفيا أو حتّى يدفن مع صاحبه، وفعلا هذا ما حدث عند الحكيم فعزيرة حافظت على سرها في حياتها وبعد مماتها، ولم يفتضح هذا السرّ إلّا بعد وفاتها بزمن، لم يأت العنوان بمحض الصدفة بل كان اختياره دقيقا ممحصا، فسّر المنتحرة هو لب الموضوع الذي تدور حوله أحداث المسرحية، وكان طرحه مشوقا للقارئ إلى حدّ بعيد، فشخصية المنتحرة تنكشف في الفصل الأوّل من المسرحية بينما يبقى سرّها متواريا إلى الفصل ما قبل الأخير.

إنّ ارتباط العشق بالانتحار لم يكن من خيال الحكيم، بل هو ظاهرة مرتبطة بالشباب المراهق خاصة المتهورين منهم، وفي قصة (الأصمعي والفتى العاشق)¹⁰ خير دليل على ذلك، لذا فإنّ كلّ محبّ وكل من يعاني آلام الفراق لربّما فكّر مرة أو مرات في الانتحار والجريء منهم قد حاول فعلا، لهذا كان العنوان بالنسبة لهؤلاء جدّابا، ما سيجعلهم يلتهمون هذه المسرحية التهاما.

- سيميائية الغلاف:

تعتبر صفحة الغلاف نصا موازيا تتعالق فيه الأشكال والألوان، فتتجاوز المادة والسكون إلى الانتظام كيانا تواصليا تتأزر عناصره لأداء معنى وتجسيد موقف¹¹.

جاءت صفحة غلاف مسرحيتنا باللونين الأبيض والأسود فقط، عكس المؤلفات المعاصرة التي قد يعتمد كتابها على فنانون تشكيليّين لإنجاز أغلفتها، وتظهر واجهة إنتاجهم بزخارف لونية جذابة، وتقاطعات خطيّة لها مدلولات مختلفة. يوحي اللون الأبيض بالحياد والفراغ، ويرتبط هذا بحياة البطلة فلو لم تكن فارغة من الإثارة لما أقبلت على وضع حدّ لها، أمّا اللون الأسود فيوحي بالحزن وهو الأثر السلبي الذي تخلّفه أيّ حادثة سيئة ما بالك بانتحار فتاة يافعة.

يتوسط القسم العلوي للصفحة عنوان المسرحية مكتوب بخط واضح بارز، ومعلوم أنّ "الخط واللفظ يعبران معا عن المعنى، هذا دون إغفال دوره الإغرائي حيث يجذب الخط الجميل انتباه القارئ". ويعتبر الخط أيضا "لسان اليد وبهجة الضمير وسفير العقول، ووحى الفكرة وملامح المعرفة وناقل الخير وحافظ الأثر"¹².

جاء اسم الكاتب أسفل العنوان من جهة اليسار بحجم أقل نوعا ما، وذلك أنّ الحكيم ذو صيت عالٍ ولا يحتاج لكتابة اسمه بارزا. تظهر تحت العنوان واسم الكاتب رسمة لامرأة جميلة الملامح، عارية الكتفين، واضح جزؤها العلوي فقط، خلفها رجل يمد يده اليسرى لإيقافها ويطأ رأسه، ووجهه مسود، وقد يدل ذلك على حزنه الشديد (ظَلَّ وَجْهَهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ)¹³.

ننوه إلى أنّ المنظور المستخدم هو (من الأقرب إلى الأبعد) فتبدو صورة الفتاة بحجم كبير يتصاغر إلى الخلف، ويظهر الرجل أقل حجما. يشار إلى أنّ الاتجاه المعتمد في الرسم هو الاتجاه التنقيطي¹⁴.

-سيمائية الأسماء:

وردت في المسرحية عدّة أسماء، والمؤكد أنّ استخدامها لم يكن اعتباطا، بل كانت مختارة بعناية لتؤدي الدور المطلوب منها خدمة للشخصيات الفاعلة، وأهمها الآتي

1- إقبال؛ ورد في قاموس المعاني بمعنى: خصب، وصول،¹⁵ وتظهر في المسرحية مقبلة على زوجها طالبة رضا واهتمامه، خاصة عندما ينصرف عنها ويتصاير بعد عهد طويل بالوقار والالتزام.

2- محمود عزمي؛ محمود هو حسن السيرة، الشكور¹⁶، ودلالة هذا السمعة الطيبة التي تمتّع بها الطبيب قبل حادثة الانتحار لتفانيه في عمله، وبعد الحادثة اشتهرت سيرته لحبّ الناس الاطلاع ومعرفة من ذا الذي تسبب في هلاك بنت فتية. أمّا عزمي فهو نسبة إلى عزم¹⁷ وتظهر شخصية الدكتور أنّه كلّما عزم على أمر أتى به، حتّى أنّه لما عزم على العودة إلى شبابه ظهر ذلك في ملامحه.

3- عزيزة: مؤنث "عزيز" وهو: المكرّم، نادر الوجود، القويّ، الشريف.¹⁸ وفعلا هذا ما تمتعت به شخصية عزيزة في رأي الحكيم، لقد كانت قوية فليس كل من كان يمكنه التضحية بحياته لأجل حب فاشل، ثمّ إنّ طريقة انتحارها لا يجرؤ عليها إلاّ الأقوياء، فعادة النساء أن يسلكن أيسر السبل، حتى وإن كان الموضوع يخصّ إنهاء حياة، فهن يملن إلى شرب جرعة زائدة من الأدوية مثلا، أو شرب السم وغيرها من الطرق التي لا تبقى تشوهات وندبات على وجوههن وهنّ جثثا عفنة. وقد كانت عزيزة أيضا شريفة في قومها، وفي نفسها، ولربّما كان انتحارها بسبب فقدان شرفها "وهو ما رجحته إقبال، فقد اختارت البطلة إيقاف حياة لا شرف بها (المتّية ولا الدنيّة). وكانت عزيزة نادرة الوجود فعلا، فأيا كان سبب فعلتها، فقليلون هم من يفضلون الموت على الاعتراف بالهزيمة.

4- سالم: معافي، بريء، خالص¹⁹، وفعلا كان الممرض مسالما بدليل أنّه في كل مرة يتجنب الشجار مع السيّدات اللاتي يدخلن حجرة الطبيب عنوة.

5- الشيخ عبد العظيم: هو اسم الشيخ الذي يتلقى عنده ابن عزمي دروسه، وكثيرا ما يتمّ استخدام لفظ "عبد" مضافا إليه اسم من أسماء الله الحسنى للدلالة على الشخصيات المبتجلة، الورعة، التقية.

6- جمال: اسم الابن، ودلالته أنّ هذا الابن يمثّل كل شيء جميل في حياة والديه.

7- دون جوان: (1572-1631م) من أبرز شعراء الإنجليز في القرن السابع عشر، عُرف بقصائده الغزلية وتأملاته الساخرة والمريرة في آن واحد، اختاره الكاتب كرمز للشهرة في عالم الغزل، والجمع بين النقيضين؛ الحكمة والسخرية. فسبّه حياة الدكتور وانقلابها من الاستقامة إلى المسخرة، وصيته الذي ذاع بين النسوة بسبب هذا، بحياة دون جوان.

- سيميائية الزمن:

إنّ مفهوم الزمن وتجلياته مفهوم متشعب لطالما أسأل الكثير من الحبر وأثار العديد من الآراء، لأنّه ليس ثابتا لاحتواء الموضوع، وإنما يتأتى حسب محتوى كل نص، فهو "كيان جديد يتكون من الشكل والمضمون"²⁰.

دلالته السيميائية	نوعه	الزمن
يدل على أنّ النهار على وشك أن يمضي وأن الوقت ملانم لتقديم خلاصة الإنجاز اليومي.	موضوعي	السادسة مساءً
يدل على التقلبات السريعة وغير المتوقعة، خاصة في تصرفات البشر سواء المسن منهم أو الشاب.	موضوعي	خريف
يدل على عمر الشباب (عمر الزهور) وهو فترة المغامرة والنشاط.	موضوعي	تسع عشر سنة
يعني وقت الألم والتعب (والعصر إنّ الإنسان لفي خسر) ²¹	نفسي	العصر
يعني أنّ السنوات مجرد أرقام والعمر الحقيقي هو ما نحسه ونعيشه.	نفسي	35، 38، 39 سنة
يدل على أهمية استغلال الوقت الثمين وتقديره بأجزاء الثانية.	نفسي	نصف دقيقة
أيقونات زمنية تختلف دلالتها باختلاف توظيفها: مثلا: -الغد هو اليوم الذي يلي اليوم الحاضر مباشرة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ²² . -الغد هو المستقبل، ومثال ذلك قول المولى عزّ وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ²³ .	موضوعي	الغد، بعد غد، بعد غد غد، البارحة، اليوم
يعني أنّ ما مضى يجب طيه ونسيانه.	نفسي	الماضي
وهي ليلة الأربعين بعد وفاة الشخص، تدل على استمرار الحزن أو إعادة إحيائه.	نفسي	ليلة الأربعين

. سيميائية المكان:

يعتبر المكان أيضا غير ثابت في النصوص، فهو مختلف باختلاف الزمان، وهو مقسم إلى أنواع:

1-المكان المجازي: وهو الذي يجسد مواقع الأحداث المتتالية في العمل الأدبي، فيكون ساحة للأحداث، وهو متغير

بتغير أفعال الشخصيات.

2-المكان الهندسي: وهو المكان الذي تفرضه أحداث النص بدقة وحيادية.

3-المكان العادي: وهو المكان الذي يشير إلى إحساس الاغتراب والضيق؛ كالسجن والمنفى.

المكان	نوعه	دلالتة السيميائية
حجرة الطبيب	عادي	وتشير إلى ما يشبه المعزل الذي تقبع فيه الشخصية البطلة، ولا يفتح باب هذا المعزل إلا بإذن.
منزل الدكتور	هندسي	يوجي بالفخامة والثراء.
قاعة المحاضرات بكلية الطب	مجازي	تدل على مجمع للمثقفين والأشخاص الفاعلين في المجتمع.
الشارع	هندسي	ويدل على الفوضى وعدم الانسجام، وهو بؤرة جامعة لمختلف أطراف المجتمع.
الطابق العلوي	مجازي/ هندسي	ويدل على سمو ورفعة الطبيب وعلو مكانته/ يخدم أحداث المسرحية حيث أن البطلة تنتحر منه.
العالم الآخر	عادي	يوجي بالوحشة والرعب حيث أننا لا نعلم عنه شيئاً.
القاهرة	هندسي	هي العاصمة التي لا تنام، وقد اختارها الحكيم كونها تمثل مسقط رأسه ومجتمعه الذي يعيش فيه.

- الوظائف السردية للشخصيات:

الوظائف المقصودة هي دور كل شخصية وما تمثله في المجتمع؛ كالشخصية المغرورة والوقورة يمثلها عزمي الطبيب، وقد اختار الحكيم مهنة الطب لنبلها وكذا مكانتها في نفسية الأفراد، خاصة في دول العالم الثالث. شخصية الأم الرؤوم، والزوجة الوفيّة التي تنتعش باهتمام زوجها، وتموت بإهماله تمثلها إقبال، وقد اختار الكاتب هذا الدور لما للعلاقة الزوجية من قداسة وكذا ما لتضحيات المرأة من دور لإنقاذ الأسرة. بينما تمثل عزيزة الشخصية الطائشة التي ما إن فشلت في أمر تضع حداً لحياتها ومعاناتها في آن واحد. تظهر شخصيات ثانوية ككاتب التحقيق ووكيل النيابة والشرطي، وتمثل دور السلطة والنفوذ والصرامة والقوة والجدية، ومثال ذلك لما منع الشرطي إقبال من الدخول في مرتين.

- سيميائية البناء الخارجي والداخلي للشخصيات:

تبدو السيدة إقبال في بداية المسرحية مثالا للمرأة الرشيقّة الأنيقة، المختالة المتباهية بنفسها، وذلك لما لها من مكانة اجتماعية اكتسبتها من مكانة زوجها، ثم سرعان ما تتحول إلى امرأة مهملة وربة بيت روتينية وذلك لما تخشى فقد زوجها. أما البناء الداخلي للشخصية فيرمز إلى الزوجة المغرورة التي ترى نفسها ذكية، محتالة، لها سلطان على زوجها إلا أن هذا السلطان يتبخر فور غرام زوجها بطيف منتحرة.

أما محمود عزمي فيبدو بدايةً شخصاً مهملاً لذاته، يقضي الأيام الثلاثة والأربعة دون حلاقة، يرتدي ملابس رثة، يخطئه الزمن على وجهه وشعره وجميع ملامحه؛ بل وحتى على تصرفاته، ينقلب لاحقاً إلى ما يشبه الشاب المتعجرف، يضع الأصباغ والمساحيق لإخفاء آثار الزمن، تدور الدوائر ويعود في نهاية المسرحية إلى أول نقطة. أما الملمح الداخلي لهذه الشخصية فهي وقورة متزنة، ذات ماضٍ مشرف، تقع في فخ التصابي نتيجة الثقة بالنفس المفرطة، إلا أنها تستيقظ من وهمها في الأخير.

عزيزة: ظاهرياً هي الشابة الفتية، الحزينة، منكسرة القلب، يتجسد انكسارها في شحوب وجهها وعبوسه المستمر. أما ما لم يظهر فهي شخصية مخادعة عصفت بالماضي المجيد للدكتور الخمسيني بخدعة كاذبة خدمة لكبرياتها المجرور. وآخر شخصية رئيسية تمثلت في شخص سالم ويظهر وديعاً حد الضعف، سادجا حد البلادة، فمثلاً لما قامت عزيزة بكسر زجاج الباب والدخول عنوة إلى مكتب الطبيب، (يدخل حاملاً صينية عليها فنجانان من قهوة)²⁴. أما في البناء الداخلي فلا يبدو سالم ذلك الشخص المنصاع البسيط، بل هو شخص متلون قد يتحول إلى وحش كاسر في أي لحظة (مرتشي).

-الرسالة المرجوة من المسرحية:

أراد توفيق الحكيم تمرير عديد الرسائل من خلال رائعته هذه؛ أهمها:

1- أن الرجل مهما ادعى أنه اكتفى من الدنيا ومتاعها، فهو كاذب لا محال، إذ أن الطبيب عزمي كان مثال الرجل الوقور المحترم، الأمين الوفي لمرضاه، المتحدّي لزوجته في كل حين وتذكيره إياها أنّ حياته أسمى من أن تضيع خلف ترهات النساء، يسقط في فخ فتاة مراهقة، وهم حبا له يغيره من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال؛ بل وعبثا يحاول العيش وفاءً لطيفها.

2- مهما طاللت أيام الرفقة والعشرة تبقى غير كفيلة بكشف معادن الرجال، فزواج إقبال من عزمي تجاوز الخمس عشر سنة، وينقلب في الأخير إلى شخص لم تعرفه ولم تألفه يوما.

3- كيد النساء، وما أدراك ما هو، هو ما استعظمه المولى عزّ وجلّ بعدما خلقه، فشخص ناضج كعزمي ومكافح بعلمه، وباحث و...تخرجه مراهقة من دائرته المقدّسة بتمثيلية تجعله محلّ السخرية. ويظهر الكيد أيضا في تصرف إقبال الأول حين أخذت عهدا مكتوبا بالوفاء، ولما تكالب الزمن على زوجها أسمعته ما لّد وطاب من الكلام ثمّ تخلت عنه.

4- "وتلك الأيام نداولها بين الناس"²⁵؛ فلا عزّ يدوم ولا ذلّ كذلك، فمن كان يقول أنّ العزّ والمال والجاه الذين كان يتمتع بهم عزمي يذهبون في مهب الرياح بسبب مكيدة طفولية.

5- كبرياء المرأة؛ رغم حب عزيزة الجارف لسائقها إلا أنّها أبت أن يعرف أنّها ضعفت لأجله وأنهت حياتها، فاتخذت الطبيب كذريعة حتى يبقى حبيبها في دوامة الشك؛ إن كان فعلا هو حبا القاتل أو الطبيب عزمي.

6- "من الحب ما قتل"؛ لا تعرف لغة الحبّ اختلاف مستويات ولا اختلاف أعمار، ولا اختلاف أجناس، فعزيزة ذات الجاه والنسب والمال تغرم بسائقها.

7- سيطرة نظرات المجتمع على قرارات الفرد؛ فالبطلة حتى في موتها أبت أن يعلم الناس أنّها انتحرت لأجل سائق، فاختارت الطبيب لثقله الاجتماعي، لأنّ في نظر المجتمع للانتحار أوزان، وللحب أوزان، وللمحبيب أوزان...

8- كبار السنّ لا يعرفون لحفظ السرّ معنى؛ فأم عزيزة لم تحفظ سرّ ابنتها المتوفاة، وقامت بفضحها برهة بعد رحيلها عن الحياة.

9- الندم بعد فوات الأوان؛ ويظهر في حزن الطبيب وندمه على عدم تصديق اعترافات عزيزة، وبكاء السائق واعتذاره من الأم عند سماعه نبأ الوفاة.

10- مهما كان الشخص متخلقا وصلبا يمكن أن يمرّ بلحظات يضرب فيها بمبادئه عرض الحائط، وظهر ذلك في شخصية سالم البريئة التي تقبل الرشوة في آخر المسرحية.

11- المجتمع المادي؛ في كل مرحلة من مراحل المسرحية يظهر المجتمع العربي ممثلا في المجتمع المصري مجتمعا ماديا، فإقبال تحتاط لخسارة زوجها بطلبها مالا وفيرا، وعزيزة ارتأت أن توهم المجتمع أنّها انتحرت لأجل كهل غيّ أفضل من أن تكون قد انتحرت لأجل شاب وسيم لكنه معدم. والمرأة التي زارت العيادة تقول لسالم أنّها تمتلك دواء يشفي الجميع وكانت تقصد المال طبعاً.

- خاتمة:

يعتبر المنهج السيميائي من خيرة المناهج سواء القديمة منها أو الحديثة، فهو يفتح الباب على مصراعيه أمام القارئ لإبداء جميع آرائه دون تحفظ حول شكل النص ومضمونه.

- يبدو أنّ المنهج السيميائي لم يوضح بعد وخير دليل على ذلك هو الاختلافات الجلية التي تظهر في آليات تطبيقه لدى مختلف النقاد الحداثيين.

- تبقى نظرية موت المؤلف نقطة إشكال عند تطبيق المنهج السيميائي، فالإبداعات الأدبية هي نتاج لما عاشه وعاشه الكاتب بطريقة أو بأخرى.

ونوه في الأخير أنّ لتوفيق الحكيم روائعا أدبية لم تحظ بحقها الكامل في حقل الدراسات النقدية الحديثة، على غرار مسرحيتها هاته، ومسرحية لو عرف الشباب ونهر الجنون على سبيل المثال لا الحصر.

– قائمة الإحالات:

- ¹ محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010، ص268.
- ² عبد القادر رحيم، علم العنونة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 2010، ص17.
- ³ توفيق الحكيم، سر المنتحرة، دار مصر للطباعة، 1989، ص60.
- ⁴ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁵ نقلا عن عبد القادر رحيم، المرجع السابق، ص63.
- ⁶ نفسه، ص40.
- ⁷ محمد يونس صالح، فضاء التشكيل الشعري (إيقاع الرواية وإيقاع الدلالة)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2013، ص95.
- ⁸ خالد حسين حسين، في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2007، ص493.
- ⁹ محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي (دراسة الملحمة الروائية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص26.
- ¹⁰ ينظر: بهاء الدين الأبهري، تهذيب المستطرف في كل فن مستظرف، تهذيب: عبيد بن حمد الدوسري، دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض، 2007، ط1، ص180-181.
- ¹¹ رشيد شعلال، النص والنص المصاحب، قراءة في تشكل الحدث الشعري، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، العدد6، 2010، ص10.
- ¹² محمد الماكري، الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص271.
- ¹³ سورة النحل، الآية 58
- ¹⁴ التنقيطية هي تقنية للرسم يتم فيها تطبيق نقاط صغيرة في أنماط لتشكيل صورة، بعد عام 1801 قام بعض الفنانين الانطباعيين بانتهاج أساليب فردية محاولين أن يضيفوا إلى اللوحة ما يعرف ب(قسوة الخطوط).
- ¹⁵ حنا نصر الحتي، قاموس الأسماء العربية والمعربة وتفسير معانيها، دار الكتب العلمية، لبنان، ط3، 2003، ص209.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص60.
- ¹⁷ نفسه، ص52.
- ¹⁸ نفسه، ص52.
- ¹⁹ نفسه، ص42.
- ²⁰ بتصرف، مها القطراوي، الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا، نشر وتوزيع مجلة الابتسامة، دمشق، ط1، 2016، ص25.
- ²¹ سورة العصر، الآية 1
- ²² الآية 12، سورة يوسف.
- ²³ الآية 34، سورة لقمان.
- ²⁴ توفيق الحكيم، المصدر السابق، ص36.
- ²⁵ سورة آل عمران، الآية 140.

- قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- 1- الأبيشي، بهاء الدّين تهذيب المستطرف في كل فن مستظرف، تهذيب: عبيد بن الدوسري، حمد، دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2007.
- 2- الحّي، حتّا نصر، قاموس الأسماء العربية والمعربة وتفسير معانيها، دار الكتب العلمية، لبنان، ط3، 2003.
- 3- حسين، خالد حسين، في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2007.
- 4- الحكيم، توفيق، سر المنتحة، دار مصر للطباعة، 1989.
- 5- رحيم، عبد القادر، علم العنونة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 2010.
- 6- شعلال، رشيد، النص والنص المصاحب، قراءة في تشكل الحدث الشعري، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، العدد6، 2010.
- 7- صالح، محمد يونس، فضاء التشكيل الشعري (إيقاع الرواية وإيقاع الدلالة)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2013.
- 8- عبيد، محمد صابر، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي (دراسة الملحمة الروائية)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012.
- 9- القاضي، محمد، وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010.
- 10- الماكري، محمد، الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991.
- 11- مها القطراوي، الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا، نشر وتوزيع مجلة الابتسامة، دمشق، ط1، 2016.